الفصل السادس

الخاتمة
CONCLUSIONS

(٦,١) مقدمة
Introduction

يلخص هذا الفصل نتائج الدراسة ويطرح نموذجاً لخيارات صيغ المخاطبة. ويتأسس هذا النموذج على المقارنات النحوية والتداولية grammatical and pragmatic بين اللغات، والميول المخاطبية للأفراد والشبكات، والعوامل السياقية ومجموعة من ستة مبادئ لخيارات صيغ المخاطبة والتي تركز على درجة التفاوت الاجتماعي.

ركزنا في هذه الدراسة على ثلاث لغات، الفرنسية والألمانية والسويدية، والتي تشترك في سمات مشتركة تتعلق بضمائر المخاطبة، ويتمثل ذلك في وجود نظام ضمائر ثنائي في حال المفرد على الأقل (وفي حالة اللغة الألمانية في حالة الجمع أيضاً). أما اللغة الرابعة، وهي الإنجليزية، والتي درسناها بصورة غير مباشرة كنقطة مرجعية فإنها لا تحتوي على نظام ضمائر مزدوج للمخاطبة، غير أن تلك اللغة أظهرت لنا كيف يمكن للسمات الاسمية أن تؤدي وظائف شبيهة بما تؤديه صيغ الضمائر في اللغات الأخرى (لا سيما فيما يتعلق باستخدام الاسم الأول في مقابل لفظ التبجيل [باللقب أو بدونه] + الاسم الأخير، وكذلك صيغ المخاطبة الشبيهة بالـV مثل استخدام Sir و Madam، وصيغ المخاطبة الشبيهة بالـT مثل mate و dear). إن القيم

obeikandl.com

الثقافية العامة أو الخاصة والبنى الاجتماعية وكذلك العوامل السياقية، وهي جميعها عرضة للتغير الاجتماعي–السياسي، تؤثر في كيفية استخدام المعطيات اللغوية، مثل الضمائر، تداولياً في إدارة العلاقات الإنسانية. وهذا الأمر يعني أن ذات الأدوات النحوية grammatical devices يمكن أن تستخدم بشكل مختلف بين اللغات وفي داخل اللغة الواحدة. ففي اللغة الفرنسية، وإلى حد أقل في اللغة الألمانية، يمكن لصيغتي T و V أن تحركا نظام الضمائر بأكمله؛ فصيغة T الضمائرية ترتبط باستخدام الاسم الأول (أو لفظ القرابة kinship term)، بينما ترتبط صيغة V باستخدام ألفاظ التبجيل (مع استخدام اللقب و/أو بدونه) والاسم الأخير.

في الفرنسية، وفي الألمانية بصفة خاصة، جعل التنوع والتغير في المخاطبة من القواعد ودلالاتها الاجتماعية أمراً يصعب تفسيره على الإطلاق. أما في اللغة السويدية، فإن شيوع استخدام صيغة T قد أعطى صيغة المخاطبة بالاسم الأول، مقارنة باستخدام الاسم الأول + الاسم الأخير بعضاً من الأدوار الفارقة التي تتميز عن الأدوار التي تلعبها صيغتا T و V في الفرنسية والألمانية. فقد نجحت السويدية في ضبط مواردها اللغوية بعد فترة استخدمت فيها أنماط المخاطبة الكثيفة على أساس التأدب السلبي negative politeness (الفقرة ١,٥ و ٢,٣,٤)، فأصبحت صيغة T والتي يمثلها الضمير du هي الضمير الافتراضي ولا تزال صيغة الـV والتي يمثلها الضمير ni متاحة إلا أنها لاتستخدم إلا في سياقات خاصة جداً. أما عن اللغة الإنجليزية فيمكنها في أغلب الأحيان أن تتحاشى استخدام الخطاب الظاهر لأسباب ثلاث. يتمثل أحد تلك الأسباب في وجود ضمير وحيد للمخاطبة (وهو الذي نسميه الضمير U حسب مصطلحاتنا). ويتمثل السبب الثاني في استخدام أسماء المخاطبة address nominals كأساليب نداء فحسب. أما السبب الثالث فهو أن العلامات الصرفية الفعلية التي تستخدم مع المخاطَب second-person verb morphology لا تحددها الضمائر بنفس الطريقة التي نراها في الفرنسية والألمانية.

وفوق ما ذكرنا تمتلك اللغة الألمانية الضمير الإضافي ihr "أنتم"، والذي يستخدم بطريقتين: الأولى هي تمكين المتحدث من أن يضم مجموعة من الأفراد معاً على أرضية المخاطبة بـT، وهي مجموعة تقع (أ) كلياً أو جزئياً في نطاق شبكة T، أو (ب) تضم أعضاء في مؤسسة تقوم العلاقة بينهم على أساس المخاطبة بصيغة T. إن مثل هذا اللبس ambiguity يمنح الناطقين بالألمانية صيغة وسطى intermediate form في شكل الجمع يشبه في ملامحه الضمير الإنجليزي U. أما عن الضمير السويدي ni، فإنه ملتبس من ناحيتين. الأولى، أنه يمثل حالة الجمع لصيغتي T و V. الثانية، أنه أنتج درجة من سوء التفاهم بين الأجيال عند استخدامه الخاص في بعض المواقف، لا سيما في سويدية السويد، وهذا نابع من التناقض بين استخدام الشباب لهذا الضمير بقصد التأدب عند الحديث إلى كبار السن وتفسير ذلك من قبل كبار السن على أن هذا الاستخدام يعد بمثابة إقصاء exclusion لهم أو استهانة بهم condescension.

في حين نجد أن الضمير في الألمانية والفرنسية هو المحرك للصيغ الاسمية، في العادة، إلا أن الحال ليس دائماً هكذا. فصيغ T + اللقب، و T + الاسم الأخير، و V + الاسم الأول، هي دائماً صيغ مستخدمة. ويبين استخدام صيغة T مع الألقاب في ألمانية النمسا، في مجال التعليم عند مخاطبة المعلمين (الفقرة ٥,٤,١)، وأيضاً في مجال الخدمة العامة public service، أنه يمكن لصيغتي مخاطبة أن تستخدما معاً رغم تباين وظائف كل منهما على حدة، فتستخدم T في تقليص التفاوت الاجتماعي، بينما تستخدم الألقاب للتعبير عن المكانة الاجتماعية. وينطبق هذا الأمر في الألمانية على استخدام صيغة T مع لفظ التبجيل + الاسم الأخير، وهي صيغة يتخاطب بها الموظفون في المواقف العامة في المحال الكبرى (الفقرة ٤,٤,٢). فتعبر T عن تضييق هوة التفاوت الاجتماعي وتؤكد صيغة لفظ التبجيل + الاسم الأول على مكانة الموظف في بيئة العمل حينما يكون ذلك على مسمع من العملاء. وهناك صيغة أخرى وسيطة ألا وهي صيغة V + الاسم الأول،

والتي نلاحظها في الفرنسية والألمانية، فبدلاً من استخدام T في بيئة العمل من أجل تقليص التفاوت الاجتماعي، على سبيل المثال، نجد أن استخدام الاسم الأول هو الذي يلعب ذلك الدور، والضمير V هو الذي يشير إلى المكانة الاجتماعية في علاقات العمل التي تقوم على التسلسل الهرمي hierarchical work relationship (انظر الفقرة ٤,٤). وتستخدم صيغة V + الاسم الأول أيضاً في التعبير عن العلاقات الأسرية، لا سيما مع والدي الزوج أو الزوجة، ويعبر هذا التركيب عن درجة الاحترام ومدى ضيق هوة التفاوت الاجتماعي.

(٦,٢) نحو إنشاء نموذج
Towards a Model

قدمت لنا البيانات التي حصلنا عليها من المقابلات ومجموعات الدراسة وملاحظات المشاركين ومجموعات التواصل الاجتماعي الحواري عبر الشبكة رؤى متعددة حول الكيفية التي يقرر بها متحدثو اللغات محل الدراسة اختيار صيغ المخاطبة المناسبة ومن يخاطب بها ومتى (راجع (Fishman 1965)). في الفصل الرابع، ألقينا الضوء في دراستنا لأساليب المخاطبة في عدة مؤسسات ومجالات على ممارسات المخاطبة الراسخة التي لا تتطلب طرح بدائل وخيارات، مثل الممارسات المخاطبية بين أفراد العائلة وبين الطلاب وكذلك الممارسات التي تكون مفروضة قسراً أو تلك التي تقوم على التسلسل الوظيفي الهرمي، لا سيما في بيئة العمل. في الفصل الثالث درسنا كيفية استخدام المتحدثين للصيغ الضميرية أو الاسمية المتاحة في كل لغة لتأسيس الأرضية المشتركة، ودرجة التفاوت الاجتماعي وحدود الجماعة.

يعد اختيار صيغة المخاطبة مسألة تتعلق بالهوية (راجع (Le Page and Tabouret-Keller 1985))، فخيار المخاطبة يعد استجابة تلقائية وراشدة عن القواسم المشتركة بين المتكلم

والمخاطب، أو فلنقل بطريقة أخرى، مدى الأرضية المشتركة التي يتقاسمها المتكلمون مع المخاطبين. وهناك العديد من الوسائل التي يمكن بها إدراك الأرضية المشتركة، مثل الانتماء لجماعات معينة، والاهتمامات المشتركة، والرؤى الاجتماعية-السياسية المشتركة، وكذلك المؤشرت غير اللغوية مثل الملبس والمظهر الخارجي. وبالإضافة إلى ذلك، يحدد اختيار صيغة المخاطبة، أو يعكس، مدى إدراكنا لدرجة التفاوت الاجتماعي، واسعة أم ضيقة. يمكن لدرجة الألفة أن تدعم الميل إلى تقليص التفاوت الاجتماعي من خلال استخدام صيغة T في المخاطبة. وتلعب الفوارق العمرية الملحوظة دوراً خاصاً في التعبير عن التفاوت الاجتماعي الكبير في اللغة السويدية، لا سيما في السويد، وتعد تلك الفوارق هي الأساس للمخاطبة بصيغة V من طرف واحد (الفصل الثالث). ولا نجد ارتباطاً بين استخدام صيغة T والتأدب الإيجابي positive politeness (Brown and Levinson 1987) أو بين استخدام صيغة V، وتحاشي استخدام أية صيغة والتأدب السلبي إلا في اللغتين اللتين تقدمان أعلى معدل في خيارات المخاطبة، ألا وهما الفرنسية والألمانية، وغالباً ما تكون علة ذلك محاولة تجنب المرء إحراج نفسه والآخرين (الفقرة ٢,٣,١).

وسواء كان خيار صيغة المخاطبة خياراً عقلانياً أم عاطفياً، فإن هذا القرار يلعب دوراً في تحديد الاحتواء أو الإقصاء inclusion or exclusion، ويحدد مدى إمكانية وضع حد فاصل بين الجماعات، بين ذاك الشخص وبينك، بينهم وبيننا، ويحدد كذلك موقع ذلك الحد الفاصل. ويتم اختيار صيغة المخاطبة في الإنجليزية والفرنسية والألمانية (صيغة T و/أو الصيغ الاسمية) على أساس التماثل sameness، أي محاولة لتقليص التفاوت الاجتماعي إلى حد كبير. ففي السويدية، حيث تشي طرائق الاتصال بالانتماء إلى اتجاه شبه عام، نجد أن الاختلاف هو الذي يعبر عنه باستخدام صيغة V، حيث تعطي هذه الصيغة ميزة خاصة للمجموعات الصغرى (مثل الأسرة المالكة ومجموعة الطاعنين في

السن) بناء على استحقاقها لمكانة اجتماعية خاصة أو تقدير خاص. كما يظهر لنا هذا الاختلاف أيضاً في إعادة استخدام صيغة V في مجال المعاملات الخدمية في سويدية السويد، حيث يخاطب بعض مساعدي التسوق من الشباب العملاء (ممن يكبرونهم سناً في الأغلب) بصيغة V (الفقرة ٤,٥,٣). غير أن صيغة V تعد هي الأكثر انتشاراً في سويدية فنلندا والتي تتبنى أنماط مخاطبة تتشابه مع الفرنسية والألمانية، وإن كان ذلك يتم بصورة محدودة جداً، حيث تستخدم صيغة T مراراً في ذات السياقات التي تستخدم فيها اللغتان الفرنسية والألمانية صيغة V (راجع الفقرة ٥,٢,٢ و ٥,٣,٢ و ٥,٤,٢).

لاحظنا في الفصل الثاني الفوائد التي نجنيها من وجود نموذج ديناميكي يفسر مفهوم التفاوت الاجتماعي (راجع (Svennevig 1999)). ويؤكد نموذجنا حول ممارسات المخاطبة الذي نقدمه فيما يلي أهمية تعددية الأبعاد multidimensionality والتي تضم ثلاثة مقاييس، ومجموعة من المبادئ وعدداً من العوامل السياقية. ويقارن هذا النموذج بين النحوية والتداولية في اللغات، والمبادئ العامة بها، إلى جانب العوامل السياقية التي قد تنطبق أو لا تنطبق. ويعد النموذج الثلاثي نموذجاً ديناميكياً، أي أن الموارد القواعدية في اللغة تتفاعل مع مبادئ الاستخدام الوظيفي، والتي تتأثر بدورها بالسياق (العوامل). وهناك تداخل overlap بين مقياس التماثل والاختلاف ومبدأ الهوية الاجتماعية، غيرأن كل تلك العوامل لها وظائف مختلفة في هذا النموذج.

(أ) مقياس الموارد القواعدية Scale of Grammatical Resources

الألمانية – الفرنسية – السويدية – الإنجليزية

توجد ضمائر للمخاطبة في الفرنسية والألمانية والسويدية. وهنا نلاحظ أن اللغتين الأوليين تستخدمان صيغاً اسمية للمخاطبة مثل استخدام الاسم الأول واستخدام لفظ التبجيل + اللقب و/أو الاسم الأخير. وتفرق الألمانية بين صيغتي T

و V في حالتي المفرد والجمع، ولا يتأثر النظام الصرفي للفعل بتغير الضمير الشخصي سوى في الفرنسة والألمانية. وتمتلك السويدية تقريباً نفس موارد الضمائر التي تملكها الفرنسية غير أنها تخلصت بالفعل من أحد تلك الضمائر، أما اللغة الإنجليزية فقد تخلت عن كل ذلك تماماً. هناك بعض الوسائل القواعدية الأخرى مثل الضمير on في الفرنسية وإلى حد أقل الضمير man في الألمانية، والتي تعد، مع صيغة المبني للمجهول لا سيما في السويدية، من الوسائل القواعدية التي تعبر عن تحاشي استخدام ضمير المخاطبة.

(ب) مقياس استخدام صيغة V Scale of V-ness

الفرنسية – الألمانية – السويدية – الإنجليزية

لقد رأينا في البيانات التي عرضناها في الفصول السابقة أن الفرنسية هي الأكثر استخداماً لصيغ المخاطبة بصيغة V وأشباهها V-like من الناحية الكمية متفوقة بذلك على اللغة الألمانية التي تتقارب معها في النتائج. أما اللغة السويدية فقد أوشكت أن تنفض عنها صيغ المخاطبة بـV وأشباهها، واستغنت الإنجليزية، بما لديها من ضمير أوحد للمخاطبة، الضمير U، كلية عن صيغتي T و V، واستعاضت عن ذلك بالأسماء الشبيهة بـT-like nominals T، مثل الاسم الأول وبعض الألفاظ مثل mate و dear، والوسائل الشبيهة بصيغة V مثل لفظ التبجيل + الاسم الأخير، واللقب، والألفاظ Sir و Madam، والتي تعبر جميعاً عن تضاؤل هوة التفاوت الاجتماعي.

إذا ما قارنا اللهجات الوطنية فيما يتعلق بمقياس استخدام صيغة V، فإننا نجد أن سويدية فنلندا ينبغي أن تأتي بين الألمانية وسويدية السويد وألمانية ألمانيا (المعتمدة القياسية). ويمكن أن تأتي الإنجليزية الإيرلندية في نهاية المقياس إذ إنها لا تستخدم

الموارد الاسمية إلا فيما ندر للتعبير عن التفاوت الاجتماعي. ويمكن تمثيل مقياس اللهجة الوطنية من حيث استخدام صيغة كالآتي:

الفرنسية – الألمانية في ألمانيا (المعتمدة القياسية) – الألمانية في النمسا (المعتمدة القياسية) – السويدية في فنلندا – السويدية في السويد – الإنجليزية في إنجلترا – الإنجليزية في إيرلندا.

(ج) مقياس التماثل Scale of Sameness

الفرنسية – الألمانية – الإنجليزية – السويدية

تستخدم الفرنسية والألمانية والإنجليزية، بالترتيب التنازلي، التماثل (الأرضية المشتركة) كمقياس أساسي يتحكم في المخاطبة بـT أو أشباهها T-like. وتمثل اللغة الفرنسية أقوى الحالات التي تفرق بين استخدام صيغتي T و V، ومن ثم فإن التحول إلى استخدام صيغة T على أساس التماثل كان أكثر بروزاً في اللغة الفرنسية. وفي اللغة الألمانية، حيث يزداد معدل التأرجح بين استخدام T و V، نجد أن مقياس التماثل يعد أقل أهمية. أما اللغة الإنجليزية بضميرها الأوحد U، فليس هناك ثمة ضرورة بها للتعبير عن التماثل (أو الاختلاف). وعلى النقيض من الحالات السابقة، تستخدم السويدية صيغ T بصورة تلقائية، ويمكن أن يكون الاختلاف (أي عدم وجود أرضية مشتركة) سبباً للمخاطبة باستخدام صيغة V.

كما أسلفنا من قبل، فإن العلاقات الإنسانية تعد في الأساس مسألة تتعلق بالهوية والاحتواء والإقصاء والوجاهة الاجتماعية face، وتتحكم تلك العوامل في عملية اتخاذ القرار وفق مجموعة من المبادئ بشأن اختيار صيغ المخاطبة المناسبة، أو في حالة التحول من صيغة مخاطبة إلى أخرى. وتتشكل ملامح تلك المجموعة من المبادئ من خلال مجموعة من الأسئلة؛ غير أنه لا يمكن القول بأن الناس في تعاملاتهم

يطرحون تلك الأسئلة عن وعي وإدراك، فتلك الأسئلة ليست سوى وسائل لإيضاح كل مبدأ من تلك المبادئ.

١- مبدأ الألفة Familiarity Principle:

هل أعرف هذا الشخص؟

٢- مبدأ النضج Maturity Principle:

هل أدرك أن هذا الشخص من الكبار؟

٣- مبدأ العمر النسبي Relative Age Principle:

هل أدرك أن هذا الشخص أكبر أو أصغر مني عمراً بصورة واضحة؟

٤- مبدأ الانتماء إلى شبكة Network Membership Principle:

هل هذا الشخص عضو عامل ومقبول في الجماعة التي أنتمي إليها؟

٥- مبدأ المشابهة الاجتماعية Social Identification Principle:

هل أدرك أن هذا الشخص يشبهني أم هو مختلف عني؟

٦- مبدأ التوافق حول أسلوب المخاطبة Address Mode Accommodation Principle:

هل إذا استخدم هذا الشخص صيغة T (أو V)، أو صيغة شبيهة بـT (أو شبيهة بـV) عند مخاطبتي، فهل أفعل معه نفس الشيء؟

تتعلق المبادئ ١ و ٢ و ٤ بالتقييم المطلق للمتخاطب، بينما ينظر المبدآن ٣ و ٥ إلى الآخر في مقابل الذات، ويتعلق المبدأ ٥ بأسلوب المخاطبة ذاته. يمكن للمبدأ ٢ أن يدعم وجود صيغة مخاطبة تقوم على التأدب السلبي، وبالتالي يمكن تحاشي استخدام صيغة T أو الصيغة الشبيهة بها والتي قد يعتبرها المخاطَب تعدياً على ذاته. ويقدم المبدأ ٣ مبرراً للاحتواء أو الإقصاء، وبالتالي فهو يتيح استخدام صيغة T (أو صيغة شبيهة بـT)، أو V (أو شبيهة بـV). ويعد هذا المقياس إذن أحد العوامل التي تمكن المتحدث من اختيار أسلوب المخاطبة المناسب.

كما رأينا، في الفصل الثالث، فإن المبدأين ٢ و ٣ ليسا حاسمين كما هو متوقع ويمكن أن يؤديا إلى نوع من التهديد لوجاهة الفرد الاجتماعية face threats ويحدث ذلك عندما ترمي صيغة المخاطبة إلى إظهار الانتماء إلى فئات عمرية بخلاف الفئة التي يتصور الشخص أنه ينتمي إليها. وترتبط المبادئ ١ و ٤ و ٥ أيضاً بالاحتواء أو الإقصاء inclusion or exclusion، وتشير صيغة المخاطبة المختارة إلى درجة التفاوت الاجتماعي. ويرتبط المبدأ ٦ بموقف المتكلم تجاه المتخاطب معه والمساحة التي يمكن أن يتلاقى converge أو يختلف diverge عندها المتخاطبان فيما يتعلق بأسلوب المخاطبة بينهما.

وكما رأينا في الفصول الثالث والرابع والخامس، تعتمد كل تلك المبادئ السابقة على عوامل مثل:

(أ) قواعد المخاطبة الخاصة باللغة و/أو اللهجة طبقاً للمقاييس السابقة؛

(ب) أساليب المخاطبة المفضلة لدى الشبكة الاجتماعية و/أو الفرد؛ بالإضافة إلى

(ج) العوامل السياقية (المجال، المؤسسة، الوسيط).

سوف تمكن تلك الواجهة المشتركة interface التي تشمل المقاييس والمبادئ والعوامل الأفراد من أن يحزموا أمرهم حول المكان اللائق الذي يودون أن يضعوا فيه مخاطبهم في إطار سلسلة التفاوت الاجتماعي continuum of social distance، ومن ثم يتمكنون من تحديد الصيغة المناسبة في إطار مقياس صيغ المخاطبة (صيغة T وأشباهها T-like أم صيغة V وأشباهها V-like). إذا ما نظرنا إلى اللغات الأربع المتضمنة في هذا المشروع اللغوي، يتضح لنا أن تلك اللغات تختلف من حيث المقاييس والمبادئ التي يمكن أن تنطبق عليها. ففي الفرنسية والألمانية، تنطبق كافة المبادئ، وهو ما لا ينطبق على السويدية، ويرجع السبب في ذلك إلى أن وضع السويدية فيما يخص مقياس الموارد القواعدية Scale of Grammatical Resources ومقياس التماثل Scale of Sameness،

ومبدأ النضج Maturity Principle، لن يكون له تأثير على خيارات صيغ المخاطبة بها، رغم أن مبدأ العمر النسبي Relative Age Principle يمكن أن يكون له أثر فيها.

وعلاوة على ما سبق، فإن البيانات التي حصلنا عليها من مجموعات التواصل الحواري عبر الشبكة تقدم لنا وسطاً اجتماعياً يشيع فيه استخدام صيغة T كضمير افتراضي في الفرنسية والألمانية والسويدية رغم أن ذلك لم يكن هو النمط العام وفق توقعات المشاركين. فلا يعرف أعضاء مجموعات التواصل الحواري عبر الشبكة إلا القليل عن بعضهم البعض، رغم أن العديد من المنتديات تقوم على أساس الأرضية المشتركة. لا تتوافر المعلومات المطلوبة لتفعيل مبدأ العمر النسبي (أو حتى مبدأ المشابهة الاجتماعية Social Identification Principle) لدى المتخاطبين، ومن ثم فإننا نجد أن المبدأ الغالب هنا هو مبدأ الانتماء إلى الشبكات الاجتماعية Network Membership Principle.

(٦,٣) اللاتبادلية والتحول
Non-reciprocity and Transition

على الرغم من ارتباط اللاتبادلية بصفة عامة بهياكل السلطة المسيطرة، إلا أن أسلوب لاتبادلية المخاطبة يقفز إلى الحياة مرة أخرى أو على الأقل يسترد عافيته. فأسلوب لاتبادلية المخاطبة يعبر عن التفاوت الاجتماعي الشاسع الذي يستشعره شخص ما بحيث لا تسمح له مكانته باحتواء الآخر في جماعته أو مخاطبته بصيغة T أو الاسم الأول بشكل تبادلي. وربما يرجع السبب في لاتبادلية المخاطبة إلى الشعور بالتفاوت الاجتماعي أو إلى علاقات الوجاهة face relations والتي يمكن أن تتأثر على نحو سلبي؛ فليس بغريب أن نجد أن اختيار صيغة المخاطبة في الألمانية قد أصبح أمراً تكتنفه الصعوبات، فمعدل تنوع أنماط المخاطبة في الألمانية هو الأوسع وليس من السهل إدراك الدلالة الاجتماعية وراء اختيار المتخاطب لصيغة المخاطبة. ومن هنا نجد

أن المخاطبة قد أصبحت من قبيل اللعبة التواصلية communication game التي يقوم بها الأفراد أو يضطرون إلى القيام بها. ويمكن أن تتطلب تلك اللعبة تحاشي استخدام صيغة مباشرة للمخاطبة، أو انتظار الآخر كي يبادر باستخدم صيغة مخاطبة اسمية أو ضميرية a pronominal or nominal mode of address. وينطبق هذا الأمر، إلى حد ما، على كل اللغات محل الدراسة ويعد جزءاً من ديناميكية التفاوض حول أسلوب المخاطبة والذي يتم بين هويات متعددة، بعضها مشترك وبعضها غير مشترك. ونظراً لأن صيغة المخاطبة في الإنجليزية لا تتمثل سوى في الصيغة الاسمية، ومن ثم فهي غير مندمجة في النظام القواعدي، ونظراً لمحدودية استخدام صيغة V في السويدية إلى حد كبير، فإن اللاتبادلية تنسحب على الألمانية والفرنسية فحسب.

في حين نجد أن ممارسة المخاطبة تتشابه سماتها في الفرنسية والإنجليزية، إلا أن هناك أيضاً فوارق هامة بينهما. فلا يُظهِر التحليل الكمي ازدياد معدل استخدام صيغة T في الألمانية عنه في الفرنسية في مواقف مشابهة فحسب، بل نجد أيضاً أن هناك أقلية يعتد بها من المفحوصين، لا سيما الشباب، ينكرون الدلالة الاجتماعية لصيغتي T و V في الألمانية. ففي الألمانية، أيضاً في الفرنسية، وجد منطقة رمادية grey territory بين المناطق التي يقطع فيها باستخدام T و V على نحو حاسم، ومن ثم نجد أن المتحدثين يصنفون أنفسهم إما على أنهم أكثر ميلاً لصيغة T أو V. تعد مثل هذه الملامح من الملامح الأسلوبية stylistic features لصورة أكثر شباباً وأكثر حيوية وبرجوازية تطمح إلى المساواة (راجع (Morford 1997)). وبالإضافة إلى ذلك، فإن الحدود المائعة fuzzy boundaries لبعض المجالات مثل مجال الأسرة تعطي مساحة للخيارات الفردية والمرونة التفاوضية في كلتا اللغتين (انظر الفقرة ٤,١,١ و ٤,١,٢).

يعد استخدام ضمير الـT، واستخدام الاسم الأول، في حالة اللغة الإنجليزية، من الصيغ الآخذة في الشيوع في مجال العمل، وأحياناً يرمي هذا الاستخدام إلى الترويج لهوية

شركة ما أو التعبير عن ضآلة هوة التفاوت الاجتماعي بين الزملاء؛ غير أن الطبيعة غير القابلة للتبدل التي تكتسبها العلاقات القائمة على استخدام T في الفرنسية والألمانية والحراك في بيئة العمل ومتطلبات المجال التجاري يحول دون شيوع هذا الاستخدام، إذ إن استخدام صيغة V في هذا المجال يمكن أن يمنع شبهة المحاباة semblance of favouritism. وفي اللغة الإنجليزية أيضاً، يمكن لصيغ المخاطبة الاسمية الشبيهة بصيغ الـV مثل Sir و Madam أن تضمن الحفاظ على الفارق الاجتماعي في مواقف الصراع في مجال المعاملات التجارية.

أما فيما يتعلق بالتحول من صيغة مخاطبة إلى أخرى، فإن صيغة المخاطبة في المقابلات الأولى في الفرنسية والألمانية يغلب عليها أن تكون من نوع V، إلا في داخل المؤسسات والشبكات التي تتسم باستخدام صيغة T. غير أنه قد تتوافر بعض الفرص للتحول من استخدام صيغة V إلى صيغة T في بادئ الأمر أو بعد ذلك. وتقليدياً كان هذا الانتقال من صيغة مخاطبة إلى أخرى من أمارات التحول الفارقة a rite of passage التي كان يحتفل بها شعائرياً أو التي تتم وفق قواعد خاصة، ومن أمثلة ذلك قيام شخص كبير السن بالإنعام على شاب بمخاطبته بعفوية بصيغة T. ويمكن أن يكون هذا التحول حدثاً خاصاً، كالتخرج أو إكمال رسالة الدكتوراه، الأمر الذي يحدو بالمعلم أو المشرف إلى أن يقدم على إبرام علاقة مع الطالب بمخاطبته بصيغة T. غير أن التحول يمكن أن يكون تلقائياً، وشاهد ذلك ما رأينا من ممارسات في الانتقال من صيغة مخاطبة إلى أخرى في اللغة السويدية، تلك اللغة التي مرت بأكثر التغيرات راديكالية فيما يتعلق بصيغ المخاطبة.

(٦,٤) قيم المخاطبة والقيم الثقافية في مواجهة التغير الاجتماعي–السياسي
Address and Cultural Values in the Face of Sociopolitical Change

لقد أصبحت اللغات، وما بها من أنظمة للمخاطبة، متصلة ببعضها البعض بصورة متنامية بسبب عوامل العولمة والهجرة والسياحة والتقنيات الحديثة. ولقد رأينا فيما

سبق الطرائق التي تعبر بها صيغ المخاطبة عن العلاقات الإنسانية ومدى أهمية دور القيم الثقافية في هذا. ويقف في مواجهة هذا الاتصال اللغوي عوامل صغرى وكبرى تتفاعل عبر هذه اللغات والثقافات، يتجلى تأثيرها من خلال نظرة البعض إلى أنظمة المخاطبة الخاصة بالآخرين وما يرتبط بها من معضلات. ومن بين تلك المعضلات، مثلاً، التوجس من استخدام اللغة الأولى مع أناس أقمت علاقتك معهم على أساس المخاطبة بأساليب شبيهة بـT في الإنجليزية، ولا يكون هذا الأسلوب لائقاً في لغتك الأولى. لقد أدى تحول قواعد المخاطبة من السويدية إلى الألمانية في بيئة العمل السويدية متعددة الجنسيات في الدول الناطقة بالألمانية إلى مشكلات في العلاقات الصناعية والمعاملات الخدمية.

إن التطورات الدورانية cyclical developments في أساليب المخاطبة وما تحتويه من تنوع كبير يضعفان من القوة التنبؤية للميول المخاطبية التي كان يتوقعها براون وجيلمان (Brown and Gilman 1960). إن تنبؤ براون وجيلمان بتفوق صيغة المخاطبة بـT على صيغة المخاطبة بـV لا يمكن التحقق من صحته إلا بالتعامل مع المخاطبة حالة بحالة. ولعل حالة سويدية السويد تؤكد هذا التنبؤ، ولكن حتى في هذه الحالة عاد الضمير ni ليظهر من جديد في السويدية في المعاملات الخدمية بين الشباب وكبار السن وأحياناً في مواقف معينة ترتبط بالمكانة الاجتماعية status-marked situations. لقد تحولت اللغة السويدية في البداية تحولاً سريعاً في مجتمع ارتبط فيه إسقاط الألقاب ببعض التقاليد الاجتماعية الصارمة إلى مجتمع لا يسمح بأية مساومة حول صيغ المخاطبة الواجب استخدامها. إن هذا التطور السريع لم يكن له نظير في أي من اللغات الأخرى التي قمنا بدراستها في هذا الكتاب.

زالت الآثار الممتدة لأيديولوجية استخدام T في حركة الطلبة في اللغة الفرنسية، وفي اللغة الألمانية على نحو خاص. ففي ألمانيا انحصرت تلك الآثار في الشبكات ذات الأيديولوجيات المتقاربة فكرياً like-minded networks مثل الشبكات التي تتناول

مشكلة "زيادة مواليد الأطفال" baby boomers، وانحصرت كذلك في المجال الجامعي، حيث أصبحت المخاطبة بـT شائعة بين الطلاب بصفة عامة. ولعل من الآثار التي لا تزال قائمة لثورة الطلاب في اللغة الألمانية إسقاط الألقاب في التواصل العفوي على نحو كبير. وفي فرنسا كان الطلاب والعمال هم المحرك لأحداث مايو ١٩٦٨م وما تبعها، وتظهر البيانات الفرنسية استمرار الجدل حول نتائج تلك الحركة (وهي آثار عابرة في أغلبها) وتأثيرها على الممارسات المخاطبة بالضمير والاسم، حتى بعد ٤٠ عاماً من اندلاعها. لقد استمرت الأفكار الكامنة وراء المخاطبة بصيغة T تمارس أثرها في بعض المؤسسات التعليمية الثانوية، حيث نجد أن صيغة T هي النمط الطبيعي للمخاطبة بين الطلاب وأعضاء هيئة التدريس والإدارة، كما أن هذه الأفكار أيضاً هي السبب وراء انتشار صيغة T والذي نشهده حالياً على نطاق واسع بين الأكاديميين الجامعيين وبين الطلاب، لا سيما ذوي الاتجاهات اليسارية الخاصة وأيضاً أولئك الذين يطلق عليهم اسم soixante-huitards ('sixty-eighters') "تيارحركة ٦٨".

لقد جذبت هذه الدراسة الانتباه إلى بعض التطورات الجديدة؛ فهناك روح فردانية pervasive individualism جديدة انتشرت كالنار في الهشيم، وكانت محل تعليق من المشاركين بشكل صريح، وقد أدت تلك الروح إلى مقاومة الخضوع لفرض أية ممارسات مخاطبية؛ ونجد أنه في اللغات التي نحن بصددها أبدى الأفراد رغبتهم في الاحتفاظ بحقهم في اختيار الصيغة الضميرية أو الاسمية التي ينبغي أن يخاطبوا بها، ومن يحق له القيام بذلك.

لقد تجلت ملامح قضية فرض صيغة مخاطبة معينة في ألمانيا الشرقية بصفة خاصة، حيث رفض بعض أبناء جيل الشيوخ والكهول الاستخدام العام لصيغة T في المخاطبة، نظراً لأن الحزب الشيوعي SED كان قد فرض تلك الصيغة على أعضائه في أيام جمهورية ألمانيا الديمقراطية. لم تؤيد أغلبية المشاركين في المقابلات من الفرنسيين

فرض استخدام صيغة T في بيئة العمل، وقد عبر مجموعة من المفحوصين في المجموعة الإنجليزية أيضاً عن امتعاضهم من فرض صيغ معينة في المخاطبة. لقد أعاد التأدب في المعاملات التجارية صيغ Sir/Madam في إنجلترا والضمير ni في السويد، وأتاحت العولمة التواصل بين اللغات ذات الأنظمة المخاطبية المختلفة. وهكذا أصبح الناس أكثر دراية بطرائق غيرهم في أداء "فعل المخاطبة" doing address.

(٦,٥) الإسهامات الخاصة لتلك الدراسة
The Special Contributions of This Study

لقد كان لكل طريقة منهجية اتبعناها في جمع البيانات – سواء أكانت مجموعات الدراسة أم الاستبانات المفتوحة والمغلقة أم ملاحظات المشاركين أم مجموعات التواصل الحواري عبر الشبكة – إسهام فريد في المشروع ككل. فقد مكنتنا مجموعات الدراسة من تبين المسائل البارزة حول المخاطبة في المجتمع. وأدت المناقشات الحية والمناظرات بين الأشخاص ذوي الخلفيات المتباينة من ناحية العمر/الجيل، التعليم/المهنة والنوع إلى تبين مدى التنوع والتغير في أساليب المخاطبة، خصوصاً أنه قد ثبت أن المخاطبة مسألة ذات أهمية في العديد من المجتمعات محل الدراسة. وتمكنا من خلال ملاحظات المشاركين أن ندرس القضايا التي نوقشت في مجموعات الدراسة بصورة أوسع. وفوق ذلك، ناقشنا تلك القضايا بشكل أكثر وضوحاً في القسمين الكمي والكيفي من المقابلات والتي أفرزت مقارناتها نتائج هامة في داخل مواقع البحث وفي داخل اللغات وفيما بينها. وأما مجموعات التواصل الحواري عبر الشبكة فقد قدمت لنا منتديات مختلفة حول المخاطبة في وسيلة إعلامية تعد هي ذاتها عاملاً من عوامل التغيير التي تؤثر في اختيار صيغة المخاطبة. قدم لنا الكم الضخم من البيانات الكيفية اقتباسات عرضناها في ثنايا الكتاب، فسمعنا أصوات العديد من

المشاركين. وتوضح الطبيعة التأملية لتلك الاقتباسات قدر ما يبذله الأفراد من فكر عند اختيار صيغة المخاطبة المناسبة.

لقد مكننا تبني نموذج للغات متعدد المراكز من التيقن من تأثيرات القيم الثقافية على المخاطبة في بعض اللهجات الوطنية الخاصة. وساهم الاتصال باللغة الفنلندية، والتي تمتلك نظاماً للمخاطبة يفوق اللغة السويدية في صرامته، في ازدياد معدل استخدام صيغ V في سويدية فنلندا Finland-Swedish عنه في سويدية السويد Sweden-Swedish ؛ ولا تزال قضايا المكانة الاجتماعية والرسمية تلعب دوراً هاماً فيما تبقى من نظام المخاطبة الذي يفرق بين صيغة T وصيغة V a residual T/V dichotomy، رغم أن ذلك لم يكن بنفس الكثافة التي نجدها في الفرنسية والألمانية. لقد لاحظنا أيضاً انخفاض العتبة العمرية التي يبدأ عندها استخدام صيغة V بصورة دالة في سويدية فنلندا مقارنة بسويدية السويد، وتعد الفوارق بين اللهجات الوطنية للألمانية، ألمانية النمسا وألمانية ألمانيا، نسبية وليست مطلقة. ويعكس ارتفاع معدل استخدام صيغة T والألقاب في النمسا التاريخ الاجتماعي السياسي والثقافي، وفي ذات الوقت تعبر صيغ المخاطبة المستخدمة في ألمانيا الشرقية عن الرغبة في مجتمع أكثر شمولية a more collective society وتعبر كذلك عن بغض للحزب الشيوعي. ويوضح ذلك التباين المتزايد الذي نراه في المواقف تجاه المخاطبة وممارساتها في ألمانيا الغربية والشرقية، تأثير التاريخ الاجتماعي الثقافي في أساليب المخاطبة بعد عقدين، تقريباً، من سقوط حائط برلين رغم أن الدولتين لم تنفصلا سوى لأربعة عقود فقط. قد تكون تعليقات مجموعة الدراسة الإيرلندية حول قلة الصيغ المخاطبية الاسمية الشبيهة بالV مثل Sir و Madam في الإنجليزية الإيرلندية من قبيل رد الفعل تجاه الاستعمار الإنجليزي. ويؤكد كل ما سبق على "عمق" الجوانب الدلالية للغة.

لا تخلو نتائجنا من المفاجآت. ففي كل مواقع الدراسة، كانت المخاطبة تزداد تعقيداً عما كنا نتوقعه. حتى في سويدية السويد، بما فيها من سيطرة كاملة لصيغة T على أساليب المخاطبة، لا يزال الفارق بين استخدام صيغ T وصيغ V يجذب إليه الكثير من الناس ويجعلهم في صراع حول اختيار صيغة المخاطبة المناسبة؛ ففي بعض المجالات مثل مجال القانون، لا تزال الألقاب تستخدم وكذلك ضمير الغائب وهما من بقايا ممارسات المخاطبة السابقة في سويدية السويد. وفي سويدية فنلندا، نجد أن صيغة V والتي تعبر عن المكانة الاجتماعية يزيد معدل انتشارها مقارنة بسويدية السويد. وهناك بعض التناقضات، وهي تناقضات تشبه تلك التي لاحظناها مع المتحدثين الألمان في تحاشيهم لما لا يتيقنون منه في أساليب المخاطبة ((Hofstede 1991: 75)، لكن راجع (Behrens 2007)) وكذلك فيما يعلقونه من أهمية على عنصر الالتزام commitment كقيمة ثقافية، إذ إنه في الوقت الذي يمتدح فيه الألمان لذة النظر في المعاني التي يرمي إليها المتخاطب عند استخدامه لصيغة T أو V، ينكر بعضهم الدلالة الاجتماعية لاستخدام T و V.

في اعتقادنا أن ما أهملته الدراسات السابقة هو تناول عنصر "التنوع" variation في أساليب المخاطبة داخل كل لغة من اللغات محل الدراسة، وهو ما نجحت دراستنا الحالية في استيعابه. وتعبر الاختلافات في صيغ المخاطبة بين اللغات وفي داخل كل لغة عن القيم الثقافية الكلية والفرعية cultural and sub-cultural values، والتي يلعب التاريخ السياسي والاجتماعي دوراً في تشكيلها، لذا فإن المخاطبة التي تتم بصيغة T وأشباهها تتجلى في أبرز صورها بين الشباب في اللغة الإنجليزية والألمانية والفرنسية وفي الشبكات المهنية وفي شبكات المصالح المشتركة common-interest networks. وكما نرى هذا النمط من المخاطبة منتشراً أيضاً في شبكات مجموعات التواصل الحواري عبر الشبكة، غير أن انتشاره لا يكون في كافة المواقع كما يظن البعض، فنحن لا نضمّن السويدية داخل هذا الإطار إذ إن صيغة T في تلك اللغة هي الصيغة الغالبة في كافة السياقات تقريباً.

(٦,٦) بعض القضايا العامة

Some General Issues

يؤكد هذا المشروع البحثي على بعض القضايا العامة، ولعل إحدى تلك القضايا هي أن اللهجات الوطنية للغة متعددة المصادر، حتى وإن كانت ذات اختلافات طفيفة نسبياً في النحو والصرف، تشتمل على فروق تداولية عميقة تتصل بالقيم الثقافية التي تطورت نتيجة حقب قصيرة أو طويلة في ظل الدولة الأممية nationhood والدولة الحديثة statehood والتي تباينت بينهما الأولويات الوطنية للتواصل national priorities of communication. وتعد المخاطبة أحد الأمثلة البارزة التي تتمثل بها تلك القضية، كما نرى في حالة اللغة السويدية في السويد وفنلندا والألمانية في النمسا وألمانيا الشرقية والغربية. وتؤكد هذه الدراسة نتائج الأبحاث السابقة التي أجريت على اللغات متعددة المراكز والتي ركزت على بنية المفردات والبنية الصرفية–النحوية والنظام الصوتي، حيث بات جلياً أن المتحدثين باللهجات السائدة للغة ما ليس لديهم دراية كبيرة بملامح اللهجات الأخرى في نفس اللغة (راجع المقالات المنشورة في كتاب (Clyne 1992)).

القضية الثانية التي تطرحها الدراسة هي أن وسم صيغة V بأنها صيغة التأدب polite، وهو أمر شائع، لا يعد دقيقاً إذ إن هناك العديد من الوسائل التي يمكن إظهار التأدب بها، والتي قد تشمل أيضاً صيغة T. ففي السويدية يعتبر بعض المفحوصين من كبار السن أن مخاطبتهم بصيغة V يعد نوعاً من سوء الأدب impolite ويدل على الامتهان، وهو ما يظهر تصارع القيم الاجتماعية المرتبطة بالمخاطبة في السويد المعاصرة.

ثالثاً، تؤكد المخاطبة في مواقف الاتصال اللغوي على إحدى المشكلات الكبرى المترتبة على سيطرة الإنجليزية على التواصل في العالم. ففي حين نجد أن صيغ المخاطبة في الإنجليزية يمكنها ببساطة وكفاءة أن تعبر عن بعض المواقف الصعبة والشائكة، إلا

إنها، من ناحية أخرى، لا تمكن الأفراد ذوي الخلفيات الثقافية "الأخرى" من التعبير بطريقتهم الخاصة، عن العلاقات الإنسانية وفق قيمهم الثقافية.

تؤكد هذه الدراسة على الأدوار التكاملية complementary roles التي تلعبها التايبولوجيا القواعدية grammatical typology والتداولية pragmatics في دراسة موضوع المخاطبة، وهو ما يظهر، وبصورة دالة، مدى إسهام اللغة في العلاقات الإنسانية.

obeikandl.com